هجرة النصوص بين قصيدتين

يذكر الأديب المعروف محمد عبد المنعم خفاجي، في كتابه الممتع (قصة الأدب المهجري)، الصادر في القاهرة، ملابسات قصيدة (الطين)، التي اقتبس إيليا معانيها العامة من قصيدة بدوية، بما معناه:

وقد أثارت قصيدة الطين ضجة عالية، وكان ظهورها مبعث إعجاب شديد في كل مكان.. ومنذ سنوات، وقبل وفاة أبي ماضي كشف الأديب العربي الأردني العلامة روكس العزيزي كشفاً جديداً حول قصيدة الطين، وأيد أن معانيها كلها مأخوذة من قصيدة لشاعر بدوي أردني شعبي، قال روكس العزيزي[1]:

من نحو مائة وعشرين سنة كان يعيش في البادية الأردنية شاعر بدوي اسمه (علي الرميثي) عصر الألم قلبه وألح عليه الفقر على الرغم مما وهب له الله من جَمال النفس وروعة المظهر والشهامة والنجدة، وكان لهذا الشاعر ابن عم يدعى (سالماً)؛ وكأن القدر الإلهي قد اقتطع ما وهب لعلي من الشعور الفياض وجمال الجسم والنفس من رزقه، فعاش علي معدماً إلا من فضائله وخصائله الحميدة.

أما ابن عمه سالم فكان من أغنياء العشيرة ومن وجهائها. وفي أحد الأيام غزا سالم الرميثي عقيداً لعصبة في عدادها ابن عمه علي، وفي أثناء الغارة قتلت فرس سالم وجرح وفر عنه رفاقه إلا ابن عمه علي، فإنه أردفه على فرسه، وهرب به إلى أن أوصله إلى منجاته. وعولج سالم إلى أن شفي من جراحه، فكان يعد نفسه مديناً لابن عمه بحياته، ولم يكن يرد لابن عمه طلباً، إلى أن جرى اتفاقاً أن أحب الرجلان كلاهما فتاةً معروفة في الحيّ بجمالها، فتنازعا بسببها، ولما خيرت الفتاة

---

[1]- صـ ٤٩ ـ وما بعدها من كتاب (فريسة أبي ماضي) للأستاذ روكس العزيزي ـ ط ١٩٥٦ م.

اختارت علياً ـ على خصاصته وفقره ـ فحقد سالم على الفتاة وعلى ابن عمه علي وتنكر له.

ولما توفيت الفتاة أملق علي إملاقاً شنيعاً، فرأى أن أفضل وسيلة هي اللجوء إلى ابن عمه سالم، ولا سيما أن سبب الخصام بينهما قد زال، لأن الفتاة واجهت ربها، وفي ليلة كثر ثلجها لم ينتبه سالم إلاَّ وابن عمه (علي) في الشق ـ القسم المخصص بالضيوف من بيت الشعر، فلم يلتفت إليه على خلاف ما توجبه تقاليد البادية، ولم يقدّم له طعاماً، فأثر ذلك في نفس علي أعمق تأثير، وعاتب ابن عمه عتاباً تطرق منه إلى الهجاء المر، وذكره بخاتمته، فكانت قصيدته من أروع ما رأينا في شعر البادية، على طول مدارستنا له، وقد التزم الشاعر البدوي في قصيدته هذه قافيتين: واحدة في الصدر، وواحدة في العجز... وكم كانت دهشتنا يوم رأينا هذه القصيدة على إيجازها تحوي أكثر معاني قصيدة الطين للشاعر المهاجر إيليا أبو ماضي، لذا آثرنا أن نروي قصيدة الرميثي ونفسر أبياتها، ونذكر بعد كل بيت ما يناسبه من قصيدة (الطين)، ضاربين صفحاً عن اختلاف الروايات التي ذكرها الرواة، لأنها لا تتعدى الاختلاف في كلمات معينة، أما المعنى والجوهر فواحد:

١- قال الرميثي:

يا أخوي ما احنا فحمة ما بها سنى ولا أنت شمساً تلهب الدو بضياه

الشرح: يا أخي ما نحن فحمة لا جمال فيها ولا أنت شمس تلهب الصحراء بضيائها.

ويقول أبو ماضي:

يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنت فرقد

٢- وقال الرميثي:

لصار ما تأكل ذهباً يوم تبلى يا أخوي وش نفع الذهب يوم تقناه

الشرح: أي ما دمت لا تأكل ذهباً يوم تموت فما فائدة الذهب الذي تقتنيه إذاً؟

ويقول أبو ماضي:

أنت لا تأكل النضار إذا جعت ولا تشرب الجمان المنضد

٣- وقال الرميثي:

ملبوسك أمن البز تبلاه بلوى مثل الأكفان لميت طال مشحاه

الشرح: ملبوسك من ناعم القماش وثمينه يبلى كأنه أكفان، وتصيبه النكبات كأنه أكفان لميت انقضى على موته زمن طويل.

ويقول أبو ماضي:

أنت في البردة الموشاة مثلى في كسائي الرديم تشقى وتسعد

٤- وقال الرميثي:

المنوه اللي بضميرك تلوى لي مثلها يا شين بالقلب نواه

الشرح: أمنيتك وحبك الحائر في ضميرك لي مثله أيها الرديء النذل أهواها بكل ما في قلبي من إحساس فأي فرق بيننا؟

٥- وقال الرميثي أيضاً:

نحلم حلوماً حلوة يوم نرضى وتمر يوم السعد ما بان ماطاه

الشرح: إن لنا أحلاماً لذيذة متفائلة عندما نرضى عن الحياة، لكن هذه الأحلام تتحول مرارة وعلقماً إذا فارقنا الحظ وتلمسناه فلم نجد آثار أقدامه.

أما إيليا أبو ماضي فقد عبر عن هذين البيتين بأربعة أبيات هي:

لك في عالم النهار أماني ورؤى والظلام فوقك ممتد

وبقلبي كما بقلبك أحلام حسان فإنه غير جلمد

أأماني كلها للتلاشي؟ وأمانيك للخلود المؤكد؟

لا فهـذي وتلـك تـأتي وتمـضي كـذويها وأي شـيء يؤبـد؟

٦- ويقول الرميثي معرضاً بجبن ابن عمه ونقص رجولته:

يـوم الرمـاح تناوشـك ليـه تلـوي والـترف يـوم يفارقـك ليـه تـشهاه

الشرح: إذا كنت رجلاً تام الرجولة أيها المتغطرس إياك وأن تظهر الضعف متلوياً في الحرب يوم تصيبك أطراف الرماح، إذا كنت رجلاً فيه شيء من الإباء لماذا تظهر الشهوة العارمة التي تعمي بصيرتك يرم تفارقك حبيبتك اللطيفة؟

ونرى أبا ماضي يعقد بيتاً في المعنى الذي عبر عنه الشاعر البدوي بنصف بيت قال:

وإذا راعـك الحبيـب بهجـر ودعتـك الـذكرى ألا تتوجـد؟

٧- ونرى الرميثي يقول:

ودموعنا وأيا الضحك فيه سلوى متماثلة[1] يا شين لصار تبلاه

الشرح: إن دموعنا تشبه دموعك، وضحكنا يسبه ضحكك، لأن فيهما سلوى وتعزية كما يسليك ضحكك، أيها الرديء النذل، أجل إنها تماثله يوم تختبرها.

وأبو ماضي يقول:

أدمـوعي خـل ودمعـك شـهد وبكـائي ذل ونوحـك سـؤدد

وابتـسامي الـسراب لا ريَّ فيـه وابتـساماتك اللآلـئ الخـرد؟

ونلاحظ أن الشاعر المهاجر قد عقد بيتين كاملين لما عبر عنه الشاعر البدوي في بيت واحد.

٨- وقال الرميثي:

كليتنـا للـترب نمـشي ونحيـا لا توهمـك يا الضبع نفسك بمشهاه

١- مثيله.

obeikandl.com

الشرح: كلنا عائدون إلى التراب فإياك وأن تخدعك نفسك كما تخدع الضبع عن نفسها يوم يدخل عليها الصائد في وجارها ويوهمها أنه لا يريد بها سوءاً إلى أن يجرها من كراعها وهي ساكنة لا تبدي حراكاً...

أما أبو ماضي فيقول:

أنت مثلي من الثرى وإليه فلماذا يا صاحبي التيه والصد؟

٩- وترى الشاعر الرميثي يقول بيتاً في منتهى الروعة:

هذا القمر والشمس والنجم تعلى ومخو مسك مثل الخرابيش تنصاه

الشرح: ها هو ذا القمر، وها هي ذه الشمس وها هي ذه النجوم ترتفع متعالية في قبة السماء تزور بيوت الشعر الحقيرة ـ الخرابيش ـ كما تزور بيتك الفخم ذا الأعمدة الخمسة.

أما أبو ماضي فيعبر عن ذلك بثلاثة أبيات، وهي:

النجوم التي تراها أراها حين تخفى وعندما تتوقد

قمر واحد يطل علينا وعلى الكوخ والبناء الموطد

ألك القصر دونه الحرس الشا كي ومن حوله الجدار المشيد

١٠- ويقول الرميثي:

حيانك اللي سيوفهم نور يلظى ما يمنعون الموت إن جاك معداه

الشرح: إن جماهير أعوانك وأقاربك الذين سيوفهم تومض كأنها النور لا يستطيعون أن يصدوا الموت عنك إذا جاء الوقت الذي يعدو عليك فيه كالذئب.

ويعبر أبو ماضي عن هذا البيت بثلاثة أبيات، هي:

ألك القصر دونه الحرس الشا كي ومن حوله الجدار المشيد

فـــامنع الليـــل أن يمـــدَّ رواقـــاً فوقـــه والـــضباب أن يتلبـــد

مرقـــد واحـــد نـــصيبك منـــه أفتـــدري كـــم فيـــه للـــذر مرقـــد؟

١١- ويقول الرميثي:

الله يخونـك كنـت للنـاس منـصى حتـى العـشا في مخومـسك مـا لقينـاه

والـثلج يـذري والـسواعير تـضوى هبيـت ننـصى العبـد والله ننـساه

الشرح: قاتلك الله لقد كنت في ما مضى ملجأ للناس فصغرت نفسك وتحولت نذلاً ينسى كل تقاليد العرب النبيلة.

إلى حد أنك بخلت علينا بالعشاء في بيتك ذي الأعمدة الخمسة الذي يدل على الزعامة والكرم!

أجل لم نجد عندك عشاء في أتعس الأوقات يوم كانت الثلوج تتساقط والصواعق تشق الظلام، فقاتلك الله وقبح الله تفكيرنا ما أسخفه، إذ نلجأ إلى عبد حقير مثلك، وقد نسينا أن نلجأ إلى الله مصدر كل خير الذي في يده ناصيتك وفي يده رزقك.

وهذان البيتان نجد شاعرنا المهاجر يعبر عنهما بثلاثة أبيات، يقول أبو ماضي:

ذدتـــني عنـــه والعواصـــف تعـــدو في طلابـــي والجـــو أقـــتم أربـــد

بينمـــا الكلـــب واجـــد فيـــه مـــأوى وطعامـــاً والهـــر كالكلـــب يرقـــد

فـــسمعت الحيـــاة تـــضحك مـــني أرتجـــى ومنـــك تـــأبى وتجحـــد

١٢- ويختم الرميثي قصيدته بقوله:

وهو البيت الرابع عشر من القصيدة، أما الثالث عشر فلا علاقة له بقصيدة الطين:

أنـــت ومـــا ثمـــرت تـــسقط وتبلـــى وتـــراب قـــبرك ســـافي الـــريح يـــسفاه

الشرح: أنت وكل ما كنزت في حياتك سوف يبلى وأنت سوف تسقط وقبرك تذروه الرياح تنثر ترابه في الفضاء، فانظر إلى هذه الخاتمة المروعة التي انتهى إليها الشاعر البدوي السليم في فطرته.

أما أبو ماضي فيقول في المعنى نفسه:

إن قصراً سمكته سوف يندك وثوباً حبكته سوف ينقد

وليس بخافٍ أن الشطر الأول من بيت أبي ماضي مأخوذ من قول حكيم المعرة، وأعماها القائل:

كل بيتٍ للهدم ما تبتنى الورْ قاء والسيد الرفيع العماد

ويقول العلاّمة روكس بعد ذلك: فنحن لا ندري كيف يمكن أن يقع هذا التوارد في الخواطر، أو وقوع الحوافر ـ بين الشاعرين، إن لم يكن شاعرنا المهاجر قد اطلع على هذه القصيدة من أبناء لبنان الذين كانوا يتاجرون بين البدو، ويرددون أشعارهم، ويتشبهون في ملابسهم وإطلاق شعر رؤوسهم، وقد تملك بعضهم قرى عند البدو في الديار الأردنية، وكان البدو يدعون هؤلاء اللبنانيين (الحزارمة) لأن أول من جاء إلى الديار الأردنية كانوا جماعة من أهل قرية (حزرم) فدعي كل من جاء من سورية ولبنان فيما بعد (حزرمي) كما دعا أهل مصر كل من طرأ على ديارهم شامياً للسبب نفسه، وإن لم يكن الأمر كذلك، فلسنا ندري كيف نعلل أثر البادية هذا في شعرنا المعاصر، ولا سيما أن الشاعر (علي الرميثي) مات من نحو نصف قرن، وعمره كما قال لنا الرواة الذين شاهدوه أكثر من ثمانين عاماً. لكننا أدخلنا تعديلات على السنين وخفضنا عمره إلى نحو سبعين سنة.

وقد علَّق على هذه السرقة الناقد مارون عبود بقوله:

قصيدة الطين هي من روائع الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي، ولعلَّها من الزوايا الضخام التي رست عليها أساس شهرته الذائعة، لكن (روكس بن زائد العزيزي) في حديثه عن أثر البادية في شعرنا المعاصر قد عارض هذه القصيدة الشهيرة بقصيدة قالها الشاعر البدوي. فإذا بمعانيها مأخوذة من ذلك الشاعر الأميّ. الذي

قال قصيدته منذ سبعين عاماً وأكثر. وتكاد تكون قصيدة أبي ماضي طبق الأصل، ولا فرق بينها وبين قصيدة (الرميثي)، إلا أن الرميثي يخاطب شخصاً بعينه، بينما شاعرنا أبو ماضي يخاطب البشر أجمع في شخص إنسان ما، إذ يقول:

نسي الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيهاً وعربد

وكسا الخز جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرد

يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنت فرقد

ويقول عبد المسيح حداد في جريدته (السائح) عدد ٧ آذار ١٩٥٥م:

إن قصيدة الرميثي التي كشف الأستاذ العزيزي أن إيليا أبو ماضي أغار على معانيها وسرق منها الكثير فصاغ قصيدة الطين ليس كما ظنّ السارق غير متداولة، فلقد سمعناها مراراً عديدة في إدارة هذه الجريدة منذ زهاء ثلاثة عقود من السنين، وكان الذي رواها لنا، وهو من أشد الناس تعلقاً وإعجاباً بها المرحوم (ظاهر) أبو ماضي والد إيليا أبو ماضي نفسه. وقد كان رحمه الله شاعراً قومياً ومن الذكاء بمكان، وقد أسمعنا الكثير من قصائد بدوية لشعراء آخرين حفظتها ذاكرته، وكنا نترقب أحياناً كثيرة وفوده علينا لنصغي إلى ما يرويه مستأنسين به ومستغربين كيف أن ذلك الشيخ ولع كل ذلك الولوع بشعر البدو.

وكلام عبد المسيح حداد له أكثر من دلالة، وهو لا يخفى على القارئ.